المقالة الثانية عشرة
فی قوله سبحانه : ﴿لااکراه فی الدین﴾

و فیه أطوار :

الطور الأوّل
فی اللفظ

«اللام» فی «الدین» إمّا أنّه لام العهد کما ذهب الیه بعض، أو أنّه بدل من الاضافة کما رآه آخرون، و هو مثل قوله تعالی : ﴿فانّ الجنّة هی المأوی﴾(النازعات(٧٩) : ٤٠) أی : مأواه، و المراد «فی دین الله» .

و «الدین» معناه فی الأصل : العادة و الشأن، ودانه : أذلّه و استعبده، یقال : دنته، فدان، ثمّ استعمل بمعنی الجزاء : دانه دیناً، أی : جازاه، یقال : «کما تدین تدان»أی : کما تجازی تجازی بفعلک و بحسب ما عملت، و قوله تعالی : ﴿أءنّا لمدینون﴾(الصافات(٣٧) : ٥٣) أی : مجزیّون، و منه : «الدیّان» فی صفة الله، و «قوم دین»أی : داینون، و المدین : العبد . و المدینة : الأمّة ؛ کأنّهما أذلّهما العمل و دنته : ملکته، و منه سمّی المصر «المدینة»، ثمّ استعمل بمعنی الطاعة، و دان له : أطاعه، و منه «الدین» و الجمع «الأدیان» و قد دان بکذا، دیانة و تدیّن به فهو دیّن و متدیّن .

الطور الثانی
فی المعنی

و التحقیق فیه : أنّ «الدین» فی الحقیقة هو التسلیم و الرضاء الحاصلین بسبب العقائد العلمیّة التی وقعت بافاضة الله علی القلب المطمئن بالایمان لمناسبة ذاتیّة أو کسبیّة بمزاولة الأفکار و الأنظار فی طلب الکشف و الیقین، و کما أنّ العلوم الضروریّة یحصل فی القلب بمجرّد الافاضة عن غیر اکراه و جبر، فکذلک العلوم النظریّة و المعارف الالهیّة إنّما یحصل عقیب المبادیء و المقدّمات الالهامیّة أو التعلیمیّة بمجرّد الالقاء فی الروع و التأثیر فی

الباطن و القذف فی القلب من غیر اجبار فی الظاهر و اکراه فی القالب.

و ذلک لأنّ الدین أمر باطنی و لاتسلّط لأحد علی باطن الانسان و قلبه إلّا للواحد الحق من جهة المناسبات الذاتیّة و القربات المعنویّة و المواجید الذوقیّة و المکاشفات الشوقیّة و التجلیّات الالهیّة، و قد ورد فی الخبر: «إنّ الله تعالی إذا تجلّی لشیء خضع له باطنه و ظاهره».

و فی الحدیث النبوی علیه و آله أفضل الصلوات و التسلیم: «لیس الدین بالتمنّی»[1]، مع أنّ التمنّی نوع من الاختیار، فکیف یحصل بالاکره ـ و هو الاجبار ـ و ذلک لأنّ الدین هو الاستسلام لأوامر الشرع ظاهراً و التسلیم لأحکام الحق تعالی باطناً من غیر حرج فی الباطن، کقوله تعالی: ﴿إنّ الدین عند الله الاسلام﴾(آل عمران(۳): ۱۹) و قوله: ﴿فلا و ربّک لایؤمنون حتّی یحکّموک فیما شجر بینهم﴾(النساء (۴): ۶۵).

الطور الثالث
فیما سنح لنا بالبال فی تحقیق المرام و فی انتظامه بما سبق من الکلام

إنّ الله سبحانه و تعالی بعد ما تبیّن معارف التوحید الذاتی و الصفاتی و الأفعالی بوجه شاف کاف متعال، أراد أن یشیر الی طریق العبودیّة لهذا المعبود الموصوف بغایة الجمال و الجلال، المنزّه عن المماثل فی الکمال و الشریک فی الأفعال فأشار الی «مقام الرضا» الذی هو من لوازم المعرفة و الیقین و البصیرة التامة فی أمر الدین، و هو أعلی مراتب العابدین قبل حصول الفناء و أجلّ مراتب العارفین الصدیقین فی هذه الحیاة الدنیا حین بقایا الوجود فیهم بعد، و عدم اندکاک جبل هویّتهم فی ملاحظة الهویة الأولی، فقال: ﴿لااکره فی الدین﴾.

فانّ من کان بعد متکلّفاً فی الدین ثقیلا علیه حمل أعبائه، متأذیاً بالعبادة غیر منخشع القلب و لاسهل الانقیاد سلس الاجابة للطاعة، و لاطواعاً للشریعة من غیر کره و انقباض، فهو بعد أسیر الهوی و الرغبات، عابد أصنام الشهوات، و إنّما یعبد الله و یدعوه تقرّباً به

۱. تفسیر السمعانی، ج۱، ص۴۸۲

الى نيل مراده ، و جاعلا إيّاه وسيلة الى راحة ذاته ، فهو بالحقيقة مستخدم ربّه مستعبد معبوده تعالى الله عنه .

و مثل هذا الانسان لامحالة غير عارف بالمبدأ الأعلى ، بل حاله شاهد على أنّ الهه هواه و معبوده نفسه ، فمادام على هذه الحالة فهو غير واصل الى مرتبة العبادة و المعرفة ، فتارة يعتريه الخوف و تارة تسليه الرجاء ، و فى بعض أوقاته من الجفاء يلجىء الى باب الصبر و فى بعضها يستزيد النعم بالشكر .

فاذا ارتقى من هذه المنزلة الى درجة الرضا و التسليم استراح من جميع ذلک فلم يحتج الى جذب مطلوب له أو دفع مهروب عنه ، فلايبقى له كراهة فى الدين و لاأذيّة فى سلوک طريق المسلمين ، كما ورد فى الحديث : «أوّل الاسلام اماطة الأذى عن الطريق»[1] يعنى : أول درجات الاسلام الحقيقى مقام الرضاء بالقضاء من غير اكراه ، بأن ينظر المرء الى جميع المخلوقات بعين الرضا ، و يجد من نفسه فى جميع ما يسمّى بالتكاليف الدينيّة حالة الارتضاء ، و ذلک باب الله الأعظم و به يدخل السالک فى التديّن بدينه الذى هو معرفة التوحيد المشار اليه آنفاً و العمل بمقتضاه .

و إنّما قلنا : «إنّه أوّل الدرجات» ؛ لأنّ هذه المرتبة قاصرة عن مراتب الكاملين الواصلين الى أدنى حدّ من حدود الكمال ، فانّ الراضى يدعى أنّ له وجوداً مقابلا لوجود المرضى عنه ، و له مجال تصرّف قد تركه باختياره ، و ذلک يستلزم دعوى الشركة فى الوجود و التصرف ـ تعالى الله عن أن يكون له شريک أو معه متصرف .

فان ارتقى من هذه الدرجة و وصل الى مقام الفناء المحض و محو الأثر الذى هو منزل أهل الوحدة المطلقة ـ لا أقول التوحيد فانّه طلب وحدة قسريّة ، و لا الاتحاد فانّه و إن كان بالطبع لا بالقسر لكن تفوح منه رائحة الكثرة ـ لايلتفت مثله الى مقام الرضاء و التسليم ، بل مقامه فى العبودية و الاخلاص المحض ، و أخلص من أن يكون له ثبوت حتى يمكن الصّافه بالكمال ، و أن يكون له هوية حتى يصير منعوتاً بنعوت الجمال و الجلال ، بل هناک ينقطع السلوک السالک و ينعدم الوصول و الواصل و إنّ الى الله المنتهى ، ﴿و إنّ الى ربّک الرجعى﴾ (العلق(۹۶) : ۸) .

---

۱ . الايمان سبعون أو اثنان و سبعون باباً أرفعه ﴿لا إله إلّا اللّه﴾ و أدناه اماطة الأذى عن الطريق و الحياء شعبة من الايمان ؛ كنز العمّال ، ج۱ ، ص۴۰ ، ح۸۴

الطور الرابع
[الايمان أصله الاعتقاد الجازم]

قال أبومسلم و القفّال المعتزلی : «إنّ الله ما بنی أمر الایمان علی الاجبار و القسر ، و إنّما بناه علی التمکّن و الاختیار» .[1]

و فیه نظر ؛ لأنّ الایمان أصله الاعتقاد الثابت الجازم و هو ممّا لایکون للاختیار فیه مدخل ، لأنّه نفس العلم ، و العلم کسائر الأحوال القلبیّة یحصل بافاضة الله من غیر فاعل متوسط و لایحصل بالاختیار ـ کما یحکم به الوجدان الصحیح ـ و لایلزم من کونه لا بالاختیار أن یکون حصوله بالاجبار لیکون منافیاً لما یستفاد من قوله تعالی : ﴿لااکره فی الدین﴾ .

و ذلک لأنّ الروح الانسانی من عالم الأمر ، و التصورات الکلیة و الاعتقادات الیقینیة أمور أمریّة موجودة فی عالم الأمر و کلّ ما یکون فی عالم الأمر فهو أرفع و أجل من أن یکون حصولها بطریق الجبر و الاختیار ، بل علی سبیل الرضا ، و الفعل الحاصل بالرضا ما یکون وجوده عین المشیّة و المحبّة و العشق و الشوق .

نعم ، یمکن الاعتذار من طرف هذا القائل بناء علی مذهبه من الاعتزال بأن یکون الأعمال جزء الایمان ، و هی کفعل الطاعات ـ من الصلوة و الصوم و الزکوة و الحج و الکفارات و غیرها و ترک المناهی الشرعیّة ـ و الکلّ أفعال اختیاریّة لااجبار فیه ، لکن یرد علیه أنّ الاکراه غیر الاجبار ، لکون أحدهما طبیعیّاً و الآخر نفسانیّاً ، فنفی أحدهما یستلزم نفی الآخر ، بل الأعمال الشرعیّة ـ کالصلوة و الزکوة و غیرهما ـ لو أهملها المکلّف استحق للاکراه و الزجر ، بل القتل ، فکیف لایجری فیها الاکراه ، و لهذا قیل : «الایة منسوخة» .

و الأولی أن یقال : إنّ الله سبحانه لمّا بیّن دلائل التوحید بیاناً شافیاً قاطعاً للعذر قال بعد ذلک إنّه لم یبق بعد ایضاح هذه الدلائل للکافر عذر فی الاقامة علی الکفر ، إلّا أن یقسر علی الایمان و یجبر علیه ، و ذلک ممّا لایجوز فی دار الدنیا ـ التی هی دار الابتلاء ، اذ فی القهر و الاکراه علی الدین یبطل معنی الابتلاء و الامتحان .

و نظیر هذا قوله تعالی : ﴿فمن شاء فلیؤمن و من شاء فلیکفر﴾ (الکهف(۱۸) : ۲۹) . و قال فی سورة أخری ﴿و لو شاء ربّک لآمن من فی الأرض کلّهم جمیعاً أفأنت تکره الناس حتی یکونوا

۱ . تفسیر الرازی ، ج۷ ، ص۱۵

مؤمنين﴾(يونس(١٠): ٩٩). و قال فى سورة الشعراء: ﴿لعلّک باخع نفسک ألّا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾(الشعراء(٢٦): ٤ـ٣).

و ممّا يؤكّد هذا القول أنّه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿قد تبيّن الرشد من الغى﴾يعنى ظهرت البراهين و انكشف الحجج و البيّنات و لم يبق بعدها إلّا طريق القسر و الاكره و الالجاء، و ذلک غير جائز؛ لانّه ينافى التكليف فى هذه الدنيا.

الطور الخامس
فى ذكر أقوال المفسّرين فيه

و هى عدّة أقوال:

[**القول**] **الأوّل**: أنّه فى أهل الكتاب خاصّة، الذين يؤخذ منهم الجزية، لأنّهم لما قبلوا الجزية سقط القتل و حكم المحبوس حكمهم، لأنّ لهم شبه كتاب، و أمّا الكفّار الذين تهوّدوا أو تنصّروا فقيل: إنّهم لايقرّون على ذلک و يكرهون على الاسلام. و قيل: يقرون على ما انتقلوا اليه و لايكرهون.

[**القول**]**الثانى**: أنّها نزلت فى قوم خاص من الأنصار، فقيل: إنّه رجل منهم كان له غلام أسود يقال له «صبيح» و كان يكرهه على الاسلام ـ عن مجاهد ـ.

و قيل: نزلت فى رجل من الأنصار يدعى «أبا الحصين» و كان له ابنان، فقدّم تجّار الشام الى المدينة يحملون الزيت، فلمّا أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبى الحصين فدعوهما الى النصرانيّة، فتنصّرا و خرجا الى الشام، فأخبر أبوالحصين رسول الله ﷺ فأنزل الله سبحانه: ﴿لااكراه فى الدين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «أبعدهما الله ـ هما أوّل من كفر» فوجد أبوالحصين فى نفسه على النبى ﷺ حين لم يبعث فى طلبهما، فأنزل الله سبحانه، ﴿فلا و ربک لايؤمنون﴾(النساء(٤): ٦٥).

و بطريق آخر روى أنّه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان، فتنصّرا قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، ثمّ قدما المدينة فلزمهما أبوهما و قال: «والله لا أدعكما حتّى تسلما» فأبيا. فاختصموا الى رسول الله ﷺ قال الأنصارى: يا رسول الله أيدخل بعضى النار و أنا انظر؟ فنزلت، فخلاهما.[1]

١. تخرج الأحاديث و الآثار، ج١، ص١٦٢.

القول الثالث: أنّها فی جمیع الکفار، و کان هذا قبل أن یأمر النبیﷺبقتال أهل الکتاب، ثمّ نسخ و أمر بقتال أهل الکتاب فی سورة براءة ـ و هو قول السدی، و هکذا نقل عن ابن مسعود و ابن زید أنّها منسوخة بآیة السیف. و قال الباقون إنّها محکمة.

القول الرابع: أنّ معنی قوله تعالی: ﴿لااکراه﴾أی لاتقولوا لمن دخل فی الدین بعد الحرب أنّه دخل مکرهاً؛ لأنّه إذا رضی بعد الحرب وصحّ اسلامه فلیس بمکره، و معناه: لاتنسبوه الی الاکراه، فیکون کقوله: ﴿و لاتقولوا لمن ألقی الیکم السلام لست مؤمناً﴾(النساء (۴): ۶۴).

القول الخامس: أنّ المراد لیس فی الدین اکراه من الله سبحانه و لکنّ العبد مخیّر فیه، لأنّ ما هو دین فی الحقیقة هو من أفعال القلوب إذا فعل لوجه وجوبه، فأمّا ما یکره علیه من اظهار الشهادتین فلیس بدین حقیقة، کما أنّ من أکره علی کلمة الکفر و قلبه مطمئن بالایمان لم یکن کافراً، و المراد الدین المعروف و هو الاسلام و دین الله الذی ارتضاه، و هذا الوجه قریب ممّا ذکرناه سابقاً.